فيدريكو غارسيا لوركا

الإسكافية العجيبة

ترجمة: صالح علماني

الإسكافية العجيبة La zapatera prodigiosa

مسرحية كُتبت بين ١٩٢٦ و١٩٣٠ وعرضت لأول مرة عام ١٩٣٠ في مدريد، وتحكي قصة علاقة مضطربة بين زوجين حيث يكون الزوج أكبر سنّاً من زوجته بثمانية عشر عاماً.

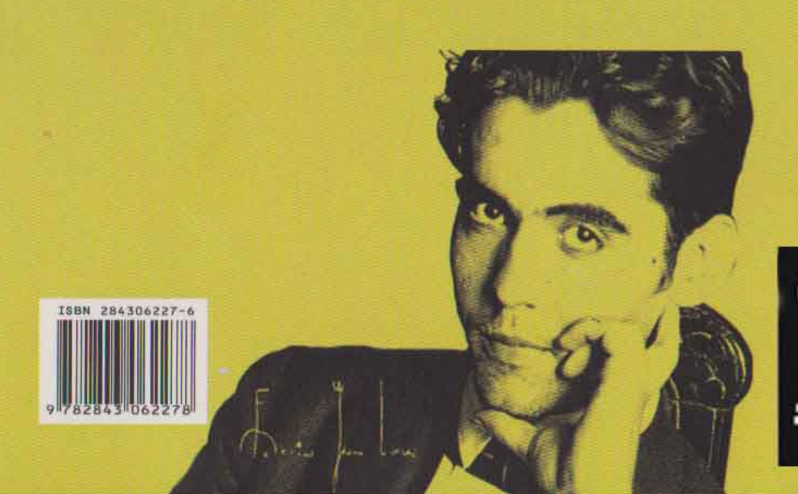
ترفض الزوجة حياتها وتحلم بحياة أفضل فتبدأ بمضايقة زوجها لدفعه الى تركها وتحاول تغيير حياتها.

تحوي المسرحية قصيدة يلقيها الزوج متنكراً بزي محرك الدمى. تشكّل القصيدة صيغة مختصرة للمسرحية.

قامت بعرض المسرحية عدد من المسارح العربية فعُرِضت في مصر كما عرضت في

فيدريكو غارسيا لوركا وهو شاعر إسباني متميز قتله الحرس الأسود الفاشي وهو في الثامنة والثلاثين من عمره في غرناطة أوائل الحرب الأهلية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩). ويرى النقّاد انه بالرغم من أن لوركا لم يكن "مناضلاً سياسياً" إلا انه بلا شك "ثوريّ" بكل ما تعني الكلمة، لكن ثورته كانت "أدبيّة"، وكان الرجل عبقرياً في أدبه بالقدر نفسه الذي كان فيه عبقرياً في إبداع الطرق المختلفة للوصول بهذا الأدب والفن بشكل عام إلى الفقراء، فاستحق لوركا من جمهوره لقب "الشهيد"...

بعد مصرعه وُصف لوركا بأنّه أجمل قتيل على الأرض الاسبانية، وقد اختير كأحد أهم الأدباء في القرن العشرين. كان يقول "أريد أن أنام نوم التفاح، وأن أبتعد عن جلبة المقابر، أريد أن أنام رقاد ذاك الطفل، الذي كان يريد أن ينتزع قلبه في عرض البحر".



ISBN 284306227-6
9 782843 062278



المؤلف: فرديريكو غارسيا لوركا
عنوان الكتاب: الإسكافية العجيبة
ترجمة: صالح علماني
تصميم الغلاف: رولا ماجد
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى: 2014

Author: **Frederico García Lorca**
Title: **La zapatera prodigiosa**
Translator: **Saleh Almani**
cover designed by: **Roula Majed**
P.C. : **Al-Mada**
First Edition: **2014**



للإعلام والثقافة والفنون

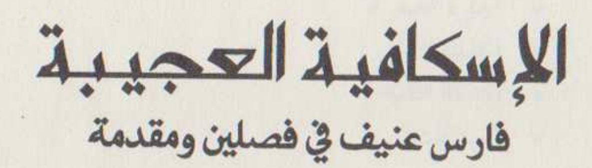
Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نؤاس – محلة 102 – شارع 13 – بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
www.daralmada.com info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

فرديريكو غارسيا لوركا



فارس عنيف في فصلين ومقدمة

ترجمة صالح علماني



الشخصيات

- الإسكافيّة
- الجارة الحمراء
- الجارة البنفسجية
- الجارة السوداء
- الجارة الخضراء
- الجارة الصفراء
- المتدينة الأولى
- المتدينة الثانية
- القندلفت
- المؤلف
- الإسكافي
- الطفل
- دون ميرلو
- الشاب ذو الحزام
- الشاب ذو القبعة
- جارات، متدينات، رهبان، وأناس

المقدمة

ستارة رمادية، يظهر المؤلف، يخرج بسرعة، يحمل رسالة في يده.

المـــؤلـــف: أيها الجمهور المحترم...

(صمت) لا، ليس الجمهور المحترم، لا. أيها الجمهور فقط؛ وليس هذا لأن المؤلف لا يعتبر الجمهور محترماً، وإنما العكس تماماً، فوراء هذه الكلمة هناك رعشة خوف خفية، ونوع من التوسل إلى الجمهور كي يكون كريماً مع تمثيل الممثلين ومع نص المبدع. الشاعر لا يطلب العطف والرفق، وإنما يطلب الانتباه، منذ أن تجاوز، منذ زمن طويل، حاجز أشواك الخوف من الصالة الذي يشعر به المؤلفون. وبسبب هذا الخوف السخيف، ولأن المسرح في أحيان كثيرة هو تمويل finanza، فقد انسحب الشعر من منصة المسرح بحثاً عن أجواء أخرى، حيث لا يخشى الناس من تحوّل شجرة، على سبيل المثال، إلى فقاعة دخان؛

أو تحوّل ثلاث سمكات، بقدرة حب يد وكلمة، إلى ثلاثة ملايين سمكة لتسكين جوع حشد كبير.

لقد فضّل المؤلف أن يضع المثال الدرامي في الإيقاع الحيّ لإسكافية شعبية، في الأمكنة كلها ينبض ويتنفس المخلوق البشري الذي ألبسه المؤلف

لبوس إسكافية بمظهر مثال أو مجرد رومانس؛ ولا يستغربن الجمهور إذا ما بدت إسكافيتنا عنيفة أو اتخذت مواقف فظة، لأنها تصارع على الدوام.. تصارع ضد الواقع الذي يحاصرها، وتصارع ضد الوهم fantasia عندما يتحول هذا الوهم إلى واقع مرئي.

(يُسمع صوت الإسكافيّة: «أريد الخروج! إنني آتية!»)

لا تتلهفي للخروج هكذا، فما تلبسينه ليس بدلة طويلة الأذيال ولا رياشاً فريدة، وإنما هو ثوب ممزق، أتسمعين؟ ثوب إسكافية.

(صوت الإسكافيّة، داخلاً: «أريد الخروج!») اصمتي!

(تُفتح الستارة، ويظهر الديكور على الضوء الخافت.)

وهكذا تشرق الشمس أيضاً كل يوم على المدن، وينسى الجمهور نصف عالمه من النعاس، ليدخل إلى الأسواق مثلما تدخلين إلى بيتك، على المنصة، أيتها الإسكافيّة الصغيرة العجيبة.

(الضوء آخذ بالتنامي.) في البدء، تصلين أنت آتية من الشارع.

(تُسمع أصوات تتشاجر، إلى الجمهور) مساء الخير.

(ينزع القبعة العالية، فتُضاء من الداخل بنور أخضر؛ يميل المؤلف القبعة فتخرج منها دفقة ماء، ينظر المؤلف بشيء من الإكراه إلى الجمهور، وينسحب القهقري، مفعماً بالسخرية) اعذروني.

(يخرج).

الفصل الأول

بيت الإسكافي، منضدة وأدوات عمل، حجرة بيضاء بالكامل، نافذة كبيرة وباب، الخلفية شارع أبيض اللون أيضاً، فيه بعض الأبواب الصغيرة والنوافذ الرمادية، هناك أبواب إلى اليمين وإلى اليسار، جو المنصة كله يخلّف انطباعاً من التفاؤل والمرح، ينبعث من أصغر التفاصيل.

يغمر المنصة ضوء مسائي برتقالي لطيف.

عند ارتفاع الستارة، تأتي الإسكافيّة من الشارع وكلها غضب وتتوقف عند الباب، إنها ترتدي ثوباً أخضر صارخاً، تشد شعرها المزين بوردتين كبيرتين، لها مظهر فظ وعذب في الوقت نفسه.

الإسكافيّة: اخرسي يا طويلة اللِّسان، يا ذات الريش الشوكي! إذا كنتُ قد فعلتُ ذلك...، إذا كنت قد فعلته، فلأنني فعلته بمزاجي... إذا لم تدخلي إلى بيتك فسوف أجرجرك أيتها الأفعى ذات الريش؛ أقول هذا كي تسمعني كل أولئك اللواتي يستمعن من وراء نوافذهن. فزواجي من عجوز أفضل من الزواج بأعور، مثل زوجك. لا أريد مزيداً من الكلام، لا معك ولا مع أحد غيرك، لا أحد، لا أحد.

(تدخل وتصفق الباب بقوة.) كنت أعرف أنه لا يمكن الحديث ثانية واحدة مع هذا النوع من الناس...؛ ولكنني أنا المذنبة، أنا، أنا...، لأنّه عليّ أن أكون في بيتي مع... أكاد لا أصدق... مع زوجي، ولو قيل لي، أنا الشقراء ذات العينين السوداوين – ولا بد من الانتباه إلى ما يستحقه هذا من تقدير – مع هذه القامة وهذه الألوان البديعة، إنني سأجد نفسي متزوجة من...، لنتفت شعري. (تبكي. يُطرق الباب).

من؟ (لا أحد يُجيب، ويُطرق الباب مرّةً أخرى).

من الطارق؟ (تسأل بحنق)

طفل: (مُرتعداً). أناس مسالمون.

الإسكافيّة: (وهي تفتح الباب). أهذا أنت؟ (بعذوبة وتأثّر).

الطفل: أجل يا سيدتي الإسكافيّة.. أكنتِ تبكين؟

الإسكافيّة: لا، بعوضة من تلك التي تطنُّ وززززززز، لسعتني في هذه العين.

الطفل: أتريدين أن أنفخ لك عليها؟

الإسكافيّة: لا يا بني، لقد زال الألم...

(تداعبه). ماذا تريد؟

الطفل: أتيت بهذا الحذاء اللمّاع، ثمنه خمس دوروات، ليصلحه زوجك. إنه حذاء أختي الكبرى ذات البشرة الناعمة، والتي تضع على خصرها شريطتين، لأن لديها شريطتين، إحداهما اليوم والأخرى في اليوم التالي.

الإسكافيّة: اتركه هنا، سيصلحه.

الطفل: تقول أمي إن عليه أن ينتبه ولا يطرقه كثيراً بمطرقته، كي لا يُفسد لمعته، لأنّ الصبّاغ اللماع حسّاس جداً.

الإسكافيّة: قل لأمك إنّ زوجي يعرف ما عليه عمله، وليتها تعرف كيف تتبّل طعاماً جيداً بالغار والفلفل مثلما يصلح زوجي الأحذية.

الطفل: (يعبس كمن سيبكي). لا تتضايقي مني، فأنا لست مذنباً، وكل يوم أدرس القواعد (النحو) جيداً.

الإسكافيّة: (بعذوبة). بني! حليتي! أنا لم أتضايق منك!

(تقبّله). خذ هذه الدمية، هل تعجبك؟ خذها.

الطفل: سآخذها، فأنت كما أعلم لن يكون لك أطفال أبداً...

الإسكافيّة: من قال لك هذا؟

الطفل: أمي قالت قبل أيام: «لن يكون للإسكافية أبناء»، وضحكت أخواتي وجارتنا رافائيلا.

الإسكافيّة: (بعصبية). أبناء؟ قد أنجب أطفالاً أجمل بكثير منهن جميعاً، وأشد اندفاعاً وكرامة، لأن أمك،... ولا بد لك أن تعرف...

الطفل: خذي دميتك، لا أريدها!

الإسكافيّة: (وقد استعادت السيطرة على أعصابها). لا، لا، احتفظ بها يا بني... فأنت لا تضايقني!

(يظهر الإسكافي من الجهة اليسرى. يرتدي سترة من المخمل لها أزرار فضيّة، وبنطالاً قصيراً، وربطة عنق حمراء. يتجه نحو منضدة العمل).

الإسكافيّة: فليحمكَ الله!

الطفل: (مذعوراً). أترككما بخير! إلى اللقاء! تهاني! ديو غراتياس Deo gratias.

(يخرج ويعدو راكضاً في الشارع)

الإسكافيّة: وداعاً يا صغيري. ليتني متُّ قبل أن أولد. لأنني ما كنت سأعرف هذه المشقات وهذه المِحَن. المال،

آه من المال. ليته فقد يديه وعينيه من اخترعك أيها المال.

الإسكافي: (وقد جلس إلى منضدته). ما الذي تقولينه يا امرأة؟

الإسكافيّة: أقول ما لا يعنيك أنت!

الإسكافي: أنا لا يعنيني أيُّ شيء، أعرف أنه عليّ أن أتحمّل وحسب.

الإسكافيّة: وأنا أتحمّل أيضاً... تذكّر أنّ عمري ثمانية عشرة سنة.

الإسكافي: وأنا... ثلاث وخمسون. لهذا أصمت ولا أتشاجر معك... أنا أعرف الكثير... أعمل من أجلك... وليَكُن ما يقدّره الله.

الإسكافيّة: (وظهرها لزوجها، تستدير وتتقدم برقّة وتأثر). لا يا صغيري.. لا تقل..!

الإسكافي: ولكن... آه! لو أنني في الأربعين، أو حتى في الخامسة والأربعين...

(يضرب بمطرقته أحد الأحذية بعنف).

الإسكافيّة: (محتدّة) سأكون أنا عندئذ خادمتك، أليس كذلك؟ لا يمكن لإحدانا أن تكون لطيفةً... وأنا؟ ألا لا أساوي شيئاً؟

الإسكافي: يا امرأة... اهدئي.

الإسكافيّة: ألا تساوي نضارتي ووجهي كل أموال هذه الدنيا؟

الإسكافي: يا امرأة... سيسمعك الجيران!

الإسكافيّة: ملعونة تلك الساعة، ملعونة الساعة التي سمعت فيها كلام عرابي مانويل.

الإسكافي: أتريدين أن أسكب لك مرطّب ليمون؟

الإسكافيّة: آه، مجنونة، أنا مجنونة، مجنونة!

(تلطم جبهتها). على الرغم من كلّ المتودِّدين الجيدين الذين طلبوا ودِّي.

الإسكافي: (راغباً في تخفيف التوتّر) هذا ما يقوله الناس.

الإسكافيّة: الناس؟ إنه أمر معروف في كل مكان. أفضل من في هذه البساتين. لكن إميليانو هو الذي كان يعجبني أكثر من الجميع... كنتَ تعرفه... إميليانو الذي كان يأتي ممتطياً مهرة سوداء، تزيّنها الدناديش والمرايا الصغيرة، يحمل في يده قضيب خيزران... ومهمازاه النحاسيان يلمعان، ويا للعباءة التي كان يرتديها في الشتاء! ويا للبطانة المخملية الزرقاء! والحواشي الحريرية!

الإسكافي: كانت لديّ عباءة مثلها أيضاً... إنها عباءات فاخرة.

الإسكافيّة: أنت؟ كيف يمكن أن يكون لديك أنت!... لماذا تتعلّل بالأوهام؟ لا يمكن لإسكافي أن يرتدي في حياته عباءة من ذلك النوع.

الإسكافي: ولكن، يا امرأة، ألا ترين...؟

الإسكافيّة: (تقاطعه). وكان هناك متودِّد آخر...

(يضرب الإسكافي الحذاء بمطرقته بشدّة).

كان نصف سيّد مدلَّل... لا بد أن يكون عمره ثماني عشرة، كلمة تقال بسرعة! ثماني عشرة!

(يتململُ الإسكافي قلقاً)

الإسكافي: وأنا أيضاً كنت في الثامنة عشرة.

الإسكافية: أنت لم تكن طوال حياتك في الثامنة عشرة... أما هو فكان كذلك، وكان يقول لي أشياء... اسمع مثلاً.

الإسكافي: (يضرب بمطرقته بغضب). ألا تريدين أن تصمتي؟ أنت زوجتي، شئتِ أم أبيتِ، وأنا زوجكِ. كنتِ تموتين، لا ثياب ولا مأوى. لماذا قبلتِ بي؟ إنكِ مستسلمة للأوهام، أوهام، أوهام!

الإسكافية: (ناهضة) اصمت! لا تجعلني أتكلّم أكثر مما يستدعيه الحذر وأضعك أمام واجباتك. لا أكاد أصدّق!

(تمرّ جارتان تغطيان رأسيهما بطرحتين أمام النافذة وتبتسمان) من كان يقول أيها العجوز أنك ستكافئني على هذا النحو؟ اضربني إذا أردت، هيّا... ارمني بمطرقتك!

الإسكافي: آه، لا تسببي لي الفضائح يا امرأة! انظري، لقد أتى الناس. آه يا ربّي!

(تعود الجارتان للمرور ثانية)

الإسكافية: إنني أحطّ من مكانتي. يا لي من مجنونة، مجنونة، مجنونة! اللعنة على عرابي مانويل. اللعنة على الجيران. مجنونة، مجنونة، مجنونة.

(تخرج وهي تلطم رأسها).

الإسكافي: (ينظر في مرآة ويعدّ التجاعيد في وجهه). واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع... ألف. (يخبّئ المرآة). ولكني أستحق هذا، أجل يا سيدي. ولنرَ: لماذا تزوجت؟ كان عليّ أن أدرك بعد أن قرأت كثيراً من الروايات، أن النساء يرقن لكلّ الرجال، ولكن ليس كل الرجال يروقون لكلّ النساء. كنتُ في أحسن حال! أختي، أختي هي السبب، أختي التي ظلّت تلح: «ستظلّ وحيداً». وما أدراني أنا! وهذا هو سبب دماري. فلتنزل صاعقة على أختي – رحمها الله – (تُسمع أصواتٌ في الخارج). ماذا هناكَ يا تُرى؟

الجارة الحمراء: (من النافذة وباندفاع شديد. ترافقها ابنتاها، وترتديان من اللون نفسه) مساء الخير.

الإسكافي: (يحكّ رأسه). مساء الخير.

الجارة: قل لزوجتك أن تخرج. وأنتما أيتها الصغيرتان، ألا تريدان التوقُّف عن البكاء؟ فلتخرج، لأرى إن كانت ستثرثر أمامي مثلما تثرثر في غيابي!

الإسكافي: آه يا جارة إذهبي، لا تثيري لي مزيداً من الفضائح، أتوسَّلُ إليكِ بحقّ مسامير سيدنا المسيح! ماذا تريدين منّي أن أفعل بها؟ تفهّمي وضعي. قضيت حياتي وأنا أخشى الزواج... لأنّ الزواج أمرٌ بالغ الجديّة، وفي آخر لحظة، أنتِ ترين ما حلّ بي.

الجارة: يا لكَ من رجل مثير للشفقة! كم كان من الأفضل لك أن تتزوّج واحدة من مستواك!... كهاتين الصغيرتين مثلاً، أو غيرهما من فتيات القرية.

الإسكافي: وبيتي ليس بيتاً. إنه صخبٌ وضجيج!

الجارة: هذا ينتزع الروح! وأنت الذي كنت طوال حياتك ظلاً طيباً.

الإسكافي: (ينظر إذا ما كانت زوجته قد أتت). أوّل أمس... قطّعتْ فخذ الخنزير المقدّد الذي كنا نحتفظ به لأعياد الميلاد هذه، وأكلناه كله. وأمضينا يوم أمس بطوله على حساء البيض والبقدونس.

حسن، ولأني احتججت على ذلك، أجبرتني على شرب ثلاثة أكواب متتالية من حليبٍ غير مغلي.

الجارة: يا لها من متوحّشة!

الإسكافي: هكذا هي الحال يا جارة قلبي، وأتوسّل إليك من أعماق روحي أن تنسحبي.

الجارة: آه، لو أنَّ أختك ما زالت على قيد الحياة! فتلك كانت قادرة...

الإسكافي: ها أنت ترين... وما دمتِ قد جئتِ، فخذي حذاءك، لقد انتهيتُ من إصلاحه.

(من الباب الذي في الجهة اليُسرى، تطلّ الإسكافية التي تراقب المشهد من وراء الستارة، دون أن تُرى)

الجارة: (بغنج) وكم ستتقاضى مني مقابل إصلاحه؟... الأزمنة تمضي من سيئ إلى أسوأ..

الإسكافي: ادفعي ما تشائين... لا حاجة للمساومة والشدِّ من هنا والجذب من هناك.

الجارة: (تدفع ابنتيها بمرفقها) هل تكفي بيزتتان؟

الإسكافي: كما ترين أنتِ!

الجارة: طيب...، سأعطيك بيزتا واحدة.

الإسكافية: (تخرج حانقة). لصّة.

(النساء يصرخن مذعورات). أتجرئين على سرقة هذا الرجل بهذه الطريقة؟

(لزوجها). وأنت، تسمح لها بأن تسرقك؟ هاتِ الحذاء. سيبقى هنا إلى أن تدفعي عشر بيزتات.

الجارة: سحلية، سحليّة!

الإسكافية: حذارِ مما تقولين!

الفتاتان: آي، فلنذهب يا أمّاه، فلنذهب، بالله عليك!

الجارة: (للإسكافي). لقد حصلتَ على امرأة لائقة، هنيئاً لك.

(يخرجن بسرعة. يغلق الإسكافي النافذة والباب).

الإسكافي: أصغي إليَّ لحظةً واحدة.

الإسكافية: (متذكرة) سحلية...، سحلية...، ماذا، ماذا... ماذا ستقول لي؟

الإسكافي: اسمعي يا ابنتي، أمضيتُ حياتي كلَّها في قلق حقيقي لتجنب الفضائح.

(لا يتوقّف الإسكافي عن ابتلاع لعابه)

الإسكافيّة: أتجرؤ على القول إني مثيرة للفضائح، بينما خرجتُ لحماية نقودك؟

الإسكافي: أنا لم أقل لك إلا أنني كنت أهرب من الفضائح، مثلما تهرب الحراذين من الماء البارد.

الإسكافيّة: (بسرعة) الحراذين! يا للقرف!

الإسكافي: (متسلّحاً بالصبر). لقد استفزّوني، وحتّى إنهم شتموني في بعض الأحيان، ومع أنه ليس لدي قدر هذا من الجبن، فقد ظللت حذراً وتجاهلتُ كلّ ذلك، خوفاً من أن أجد نفسي محاطاً بالناس، وتتداولني ألسنة النساء الثرثارات والرجال البطّالين. ها أنتِ تعرفين حقيقتي. هل أحسنتُ القول؟ هذه هي كلمتي الأخيرة.

الإسكافيّة: ولكن مهلك. ماذا يهمني كلّ هذا؟ لقد تزوجتُ منك، ألا تجد بيتك نظيفاً؟ ألا تأكل؟ ألا تضع باقات ومعاصم لم تلبس في حياتك مثلها؟ ألا تحمل ساعتك، وهي ساعة بديعة، بسلسلة فضيّة ومرصّعة بأحجارٍ كريمة، أعبئها لك كلّ ليلة؟ ماذا تريد أكثر من هذا؟ أنا مستعدّة لكلّ شيء إلا أن أكون عبدة. لأنّي أريد التصرف دائماً على هواي.

الإسكافي: لا تقولي هذا لي... مرّت ثلاثة شهور على زواجنا، وأنا أحبّك...، بينما أنتِ تهينينني، ألا ترينَ أنّني لم أعد في سنٍّ تسمح لي بالمزاح؟

الإسكافيّة: (جادة، وكما لو أنّها تحلم.) تحبُّني. تحبُّني... ولكن (بجفاء). ما الذي تعنيه بأنك تحبُّني؟ ما معنى أنك تحبني؟

الإسكافي: تظنّين أنني لا أرى. ولكنني أرى. أنا أعرف ما تفعلين وما لا تفعلين. وقد طفح الكيل بي.

(يشير) حتّى هنا!

الإسكافيّة: (غاضبة). لا فرق عندي أن يكون الكيل قد طفح بك أم لم يطفح، فأنت لا تهمني في شيء، اعلم ذلك!

(تبكي).

الإسكافي: ألا يمكنك التكلم بصوتٍ منخفض؟

الإسكافيّة: أنت تستحق أن أملأ الشارع كلّه بالصراخ، لأنّك أبله.

الإسكافي: لحسن الحظّ أن هذا كله سينتهي قريباً كما أظن؛ لأنني لا أعرف كيف أستطيع الصبر.

الإسكافيّة: اليوم لا يوجد طعام... يمكنك أن تبحث عن طعامك في مكان آخر.

(تخرج بسرعة إلى الخارج).

الإسكافي: غداً (يبتسم) ربّما سيكون عليكِ أنتِ أن تبحثي عنه أيضاً.

(يعودُ إلى منضدة العمل)

(يظهر العمدة من الباب الأوسط. يرتدي ملابس زرقاء قاتمة، عباءة واسعة وعصا قيادة طويلة تنتهي بقبضة فضّية، يتكلم ببطء وبتفخيم شديد)

العمدة: في العمل؟

الإسكافي: في العمل أيّها السيد العمدة.

العمدة: مالٌ وفير؟

الإسكافي: ما يكفي.

(يواصل الإسكافي عمله. يتلفّت العمدة بفضول).

العمدة: أنت لست على ما يرام.

الإسكافي: **(دون أن يرفع رأسه)**. لا.

العمدة: امرأتك؟

الإسكافي: امرأتي.

العمدة: **(وهو يجلس)**. هذه نتيجة الزواج في مثل سنّك، في سنك هذه يجب أن تكون أرملاً... أرملاً من امرأة واحدة على الأقل... أنا أرمل من أربع: روسا، ومانويلا، وبيسياثيون، وإنريكيتا غوميث، وهذه كانت الأخيرة.

جميعهن كنّ نساءً طيبات، يهوين الزهور والماء الصافي. وجميعهن، بلا استثناء، جرَّبن هذه العصا مرات ومرّات. في بيتي... في بيتي كلّ شيء خياطة وغناء.

الإسكافي: ها أنت ترى أيّة حياة أعيشها أنا. زوجتي... لا تحبُني، تتحدَّث من النافذة إلى الجميع. حتى مع السيد ميرلو، وأنا يتأجّج الدم في عروقي.

العمدة: (ضاحكاً). المسألة أنها صبية مرحة، وتصرّفها هذا طبيعي.

الإسكافي: هيه! إنني واثق... أنا أظنُّ أنها تفعل ذلك لتعذيبي؛ لأنني متأكد...، إنها تكرهني، ظننتُ في البدء أنني سأروِّضها بطبعي الهادئ وهداياي الصغيرة: عقود مرجان، أربطة قبعات، أمشاط من الصدف...، وحتى أربطة جوارب! ولكنّها ظلّت على ما هي عليه!

العمدة: وأنتَ ظللت على ما أنت عليه. يا للشيطان! الحقيقة أنني أرى ما يجري، وأكاد لا أصدّق أن رجلاً، بكلّ ما تعنيه كلمة رجل، لا يستطيع كبح جماح، ليس واحدة، بل ثمانين أنثى. إذا كانت زوجتك تكلّم الجميع من النافذة، وإذا كانت زوجتك تعاملك بفظاظة، فلأنك ترضى بذلك، ولأنك بلا حميّة. فالتعامل مع المرأة يتطلب الحزم، المشي بخطوات قوية واثقة، والتكلم بصوت مرتفع دائماً، وإذا ما تجرّأت بعد ذلك أن تقول كيكيريكي، فليس لها من علاج إلا العصا. ويمكن لروسا، ومانويلا، وفيسيتاثيون، وإنريكيتا غوميث، وهذه كانت

الأخيرة. أن يخبرنك من الحياة الأخرى، إذا شاءت المصادفة أن يكنَّ هناك.

الإســــكــافي: ولكن هناك أمرٌ لا أجروْ على البوحِ به.

(يتلفّت حوله بحرص)

الــعــمــدة: (بتسلّط) قل ما هو؟.

الإســــكــافي: أعرف أن ذلك رهيب... ولكنّني لست مغرماً بزوجتي.

الــعــمــدة: يا للشيطان!

الإســــكــافي: أجل يا سيدي، يا للشيطان!

الــعــمــدة: لماذا تزوّجتها إذاً أيّها الوغد الكبير؟

الإســــكــافي: هذا ما حدث، أنا نفسي لا أستطيع تفسير الأمر أيضاً، أختي، أختي هي السبب. ستظلّ وحيداً، وكلام من هذا القبيل، كثير من الكلام، وكان لديّ بعض المال، والصحّة، فقلت: إلى الهجوم! ولكن، فلتتبارك أيام الوحدة القديمة. ولتأخذ صاعقة خبيثة أختي، ليرحمها الله.

الــعــمــدة: لقد أوقعت نفسك إذاً!

الإســــكــافي: أجل يا سيدي، لقد وقعت... والآن، لم أعد قادراً على تحمّل المزيد. لم أكن أعرف ما هي المرأة. أعني... حضرتك، أربع نساء! أنا لستُ في سن أتحمّل معها هذا الصخب.

الإســــكــافـيّــة: (تغني من الداخل، بصوت مرتفع)

صخب، صخب،

انتهت فوضى الاحتفال،

ولنذهب الآن إلى إطلاق النار!

الإســــكــافي: ها أنتَذا تسمع.

الــعــمــدة: وما الذي تفكر في عمله؟

الإســــكــافي: الهرب (يقوم بحركة).

الــعــمــدة: هل فقدت عقلك؟

الإســــكــافي: (هائجاً). «إلى أحذيتك يا إسكافي» لم تعد تناسبني. انتهى. أنا رجل مسالم. لم أتعوّد على هذا الصراخ، ولا أن أكون على ألسنة الجميع.

الــعــمــدة: (ضاحكاً) فكّر في ما قلت إنك ستفعله؛ لأنك قد تفعله، فلا تكن أحمق. من المؤسف ألا يتمتّع رجلٌ مثلك بالحزم اللازم.

(تظهر الإسكافيّة في باب الجهة اليسرى وهي تضع بودرة بوسادة مساحيق وردية اللون، وتمسح حاجبيها).

الإســــكــافـيّــة: مساء الخير.

الــعــمــدة: طاب مساؤك.

(للإسكافي). كم هي جميلة. إنها باهرة الجمال!

الإســــكــافي: أتظنّ ذلك؟

الــعــمــدة: يا للورود البديعة التي تضعينها في شعرك، ويا لطيب رائحتها!

الإســــكــافـيّــة: لديك الكثير منها على شرفات منزلك.

الــعــمــدة: بالفعل. وهل تحبّين الأزهار؟

الإسكافيّة: أنا؟... إنها تفتنني! فحتّى على السطح لدي أصص أزهار، وعند الباب، وعلى الجدران. أما هذا...، هذا... فلا تعجبه. بالطبع، طوال حياته وهو مع الأحذية، فما الذي تريده منه؟

(تجلس عند النافذة). ومساء الخير.

(تنظر إلى الشارع وتتغنّج)

الإسكافي: أرأيت؟

العمدة: إنها فظة بعض الشيء...، ولكنها امرأة باهرة الجمال. يا لخصرها المثالي!

الإسكافي: أنت لا تعرفها.

العمدة: ياه. (ينهض بمهابة للخروج) إلى اللقاء غداً. ولنرَ إذا كان هذا الرأس سيصفو.

(للإسكافية) إلى الراحة يا صغيرتي! يا لخسارة هذا القوام!

(يمضي وهو ينظر إلى الإسكافيّة) ويا لتجعيدات هذا الشعر! (يخرج).

الإسكافيّة: (تغنّي) إذا أرادت أمك ملكاً.

ففي ورق اللعب أربعة:

ملك ديناري، وملك كبة،

ملك بستوني، وملك سباتي.

(تمسكُ كرسياً، وتبدأ بتدويره وهي لا تزال جالسة أمام النافذة)

الإسكافي: (يمسك كرسياً ثانياً ويديره باتجاه معاكس). أنتِ تعرفين أنني أؤمن بهذه الشعوذة، وبحركتك هذه أشعر كما لو أنك تطلقين رصاصةً عليّ، فلماذا تفعلين هذا؟

الإسكافيّة: (تفلت الكرسي). وما الذي فعلته أنا؟ ألا أقول لك إنك تريدني جامدة لا أتحرك؟

الإسكافي: لقد مللتُ من الشرح لك...؛ ولكن لا جدوى.

(يمضي للخروج. لكن الإسكافيّة تعود مجدّداً إلى تدوير الكرسي، فيرجع الإسكافي مسرعاً من عند الباب ويدير كرسيه). لماذا لا تدعينني أذهب يا امرأة؟

الإسكافيّة: يا يسوع! ولكن ما أتمناه هو أن تذهب.

الإسكافي: أتركيني إذاً!

الإسكافيّة: (حانقة) إذهب إذاً!

(يُسمع في الخارج صوتٍ ناي يرافقه غيتار يعزف موسيقى قديمة بإيقاع تهكّمي واضح. تبدأ الإسكافيّة بمرافقة اللحن بهزّ رأسها. ويهرب الإسكافي من الجهة اليسرى).

الإسكافيّة: (تغني)

لاران – لارين... لقد أحببت الناي على الدوام... إنني أهذي به دائماً... تكادُ الدموع تطفر من عيني... يا للروعة! لاران – لارين.. اسمع.. أتمنى لو أنه يسمعه...

(تنهض وتبدأ الرقص مع متودّدين متخيّلين). آي يا إميليانو! يا لجمال أشرطة قبعتك... لا... لا.. إنّي أخجل...

ولكن، ألا ترى يا خوسيه ماريا أنهم يروننا؟ خذ منديلاً، لا أريد أن تلوث لي ثوبي. أنتَ من أحب، أنت.. آي، أجل!... أحضر غداً مهرتك البيضاء، إنها تروقني.

(تضحك. توقّف الموسيقى). يا لسوء الحظّ! هذا كترك إحدانا بعد أن بلغ العسل فمها... يا لـ...

(يظهر دون ميرلو من النافذة، يرتدي ثياباً سوداء، سترة فراك وبنطالاً قصيراً، صوته يرتجف، ويحرك رأسه مثل دمية من أسلاك).

ميرلو: بست!

الإسكافيّة: **(دون أن تلتفت، وظهرها إلى النافذة)** Pin pin pio pio pio.

ميرلو: **(يقترب أكثر).** بست! بست! إسكافية بيضاء، مثل قلب اللوز، إنما مُرَّة أيضاً، إسكافية صغيرة... يا زهرة ذهبية مشتعلة... إسكافية، يا حاكمة قلبي.

الإسكافيّة: كم من الأشياء تقول يا دون ميرلو. كنت أظنّ أن الطيور لا تتكلم. ولكن إذا ما كان يحوم في الخارج شحرور أسود، شحرور أسود وعجوز...، فليعلم أنني لا أستطيع سماع تغريده الآن...، pin pio pio pio.

ميرلو: عندما تداهم ظلال الغسق الدنيا ببراقعها الناعمة، ويخلو الطريق العام من العابرين، سأعود إليك.

(يستنشق جرعة من مسحوق التبغ، ويعطس على عنق الإسكافيّة).

الإسكافيّة: **(تستدير غاضبة. وتصفع دون ميرلو، فيهتز مترنحاً)** آ. آ. آ!

(بوجه يبدو عليه القرف). لا أعادك الله أيها الوقح! يا ميرلو الأسلاك، يا علّاقة القنديل... اهرب، اهرب... من رأى مثل هذا؟ انظر أيَّ عطاس! الله معك جداً! يا للقرف!

(يتوقف الشاب ذو الحزام عند النافذة، قبعته المسطّحة تغطي وجهه، ويبدي ملامح حزن شديد).

الشاب: أتستمتعين بالبرودة أيّتها الإسكافيّة الصغيرة؟

الإسكافيّة: مثلك تماماً.

الشاب: ودائماً وحيدة؟... هذا مؤسف!

الإسكافيّة: **(بجفاء).** ولماذا الأسف؟

الشاب: امرأة مثلك، لها هذا الشعر.. وهذا الصدر البديع.

الإسكافيّة: **(بمزيد من الجفاء)** ولكن، لماذا الأسف!؟

الشاب: لأنك جديرة بأن تُرسمي على البطاقات البريدية لا أن تكوني هنا... في هذا المكان البائس.

الإسكافيّة: هكذا؟... أنا أحبُّ البطاقات البريدية، وخاصّة بطاقات العرسان الذين في شهر...

الشـــــاب: آي، أيتها الإسكافيّة الصغيرة. كم أنا محموم!

(يواصلان الحديث).

الإســـكافي: **(يدخل ثم يتراجع).** تتحدث مع الجميع، وفي مثل هذا الوقت! ما الذي سيقول الذاهبون للصلاة في الكنيسة؟ ما الذي سيُقال في الكازينو! لا بدَّ أنهم يضعون لي!... يعرونني بألسنتهم في كلِّ بيت.

(تضحكُ الإسكافيّة). آه يا ربي! ألستُ محقاً في الرحيل! أودُّ لو أسمع ما تقوله زوجة القندلفت؛ وماذا عن الرهبان؟ ما الذي يقوله الرهبان؟ هذا ما يتوجّب عليَّ سماعه.

(يدخلُ يائساً).

الشـــــاب: كيف أشرح لك ذلك؟... أنا أحبّك، أحبك مثل...

الإســكافيّة: الحقيقة أن هذه الأقوال: «أحبها»، «أحبّك»، لها وقع يبدو أشبه بدغدغة ريشة وراء أذني. أحبك، أحبها..

الشـــــاب: كم بذرة في قرص دوار الشمس؟

الإســكافيّة: وما أدراني!

الشـــــاب: بعددها أتنهّد كلَّ دقيقة من أجلك، من أجلك أنت...

(يقترب منها كثيراً)

الإســكافيّة: **(بجفاء).** ابقَ مكانك. يمكنني سماعك وأنت تتكلم لأن كلامك يعجبني وهو كلام جميل، ولكن لا تتمادى أكثر من ذلك، أتسمع؟ سيكون هذا أفضل!

الشـــــاب: ولكن هذا غير ممكن. هل لديك علاقة أخرى؟

الإســكافيّة: انصرف من هنا.

الشـــــاب: لن أبتعد عن هذا المكان دون «نعم» منك. آه يا إسكافيتي الصغيرة، أعطني كلمتك! **(يحاول احتضانها).**

الإســكافيّة: **(تقفل النافذة بعنف).** ولكن، أي وقح هذا! يا له من مجنون!... إذا أصبتك بأذى فأنت من جلبته لنفسك!... كأنني لست هنا إلا للـ، للـ... ألا يمكن لإحدانا أن تكلم أحداً في هذه القرية؟

أرى أنه لا وجود في هذه القرية إلا لواحد من احتمالين: إما راهبة أو ممسحة... هذا ما كانت تنقصني رؤيته!

(تبدو كما لو أنها تشم، وتندفع راكضة). آي، طعامي الذي على النار! امرأة مهملة!

(يأخذ الضوء بالانحسار، يخرج الإسكافي مرتدياً عباءة كبيرة، ويحمل في يده حزمة ملابس).

الإســـكافي: إما أني رجلٌ آخر، أو أنني لا أعرف نفسي! آه يا بيتي الصغير! آه يا منضدة عملي! يا شمعي، ويا مساميري، ويا جلود العجول... حسن.

(يتجه نحو الباب ويتراجع، فقد اصطدم عند العتبة بسيدتين متدينتين).

المتدينـــة الأولى: تريد الراحة، أليس كذلك؟

المتدينـــة الثانية: تحسن صنعاً بسعيك إلى الراحة!

الإســـكافي: **(باستياء)** طابت ليلتكما.

المـتدينـة الأولى: إلى الراحة يا معلم.

المتدينـة الثانـية: إلى الراحة، إلى الراحة!

(تنصرفان).

الإســـكـــافي: نعم، أريد الراحة... كأنهما كانتا تنظران من ثقب المفتاح! يا للساحرتين المتلصصتين! ولا بد من الانتباه إلى اللهجة الساخرة التي كلّمتاني بها! طبعاً...، ليس هناك في القرية موضوع آخر للحديث: أنا فعلت كذا، وهي فعلت كذا، والشباب فعلوا كذا! آي! لتنزل صاعقة خبيثة على أختي، فليرحمها الله! ولكنني أفضّل أن أعيش وحيداً على أن يشير إليَّ الجميع! (يخرج مسرعاً ويترك الباب مفتوحاً).

(تظهر الإسكافيّة من الجهة اليسرى)

الإســكـافيّـة: الغداء جاهز... هل تسمعني؟

(تتقدم نحو الباب الأيمن) هل تسمعني؟ ولكن، تراه تجرّأ على الذهاب إلى المقهى، وترك الباب مفتوحاً... ودون أن يكمل إصلاح الجزمة؟ عندما يعود، سأريه! سيسمع ما أقوله! أيُّ رجال هم الرجال، أي متعسفين هم، أي...، أي...، اللعنة!

(تشعر بقشعريرة) آي، يا للبرودة!

(تهم بإشعال القنديل، ويصل من الشارع رنين أجراس

القطعان العائدة. تطلّ الإسكافيّة من النافذة) يا لجمال هذه القطعان! ما يفتنني أنا هي الحملان. انظر، انظر... ذلك الحمل الأبيض الصغير لا يكاد يقوى على المشي. آي!... ولكن تلك الكبيرة والمزعجة تحاول أن تدوسه دون أن يهتم أحد...

(تصرخ) أيها الراعي، أيها الساهي! ألا ترى أنها ستدوس لك الحمل الوليد؟

(برهة صمت) يجب ألا أهتم؟ يا لك من جلف كبير!... وكبير جداً...

(تبتعد عن النافذة)

ولكن، رباه، أين يمكن أن يكون قد ذهب هذا الرجل المضيع؟... إذا ما تأخر دقيقتين أخريين، فسوف آكل أنا وحدي، فالطعام يكفيني ويزيد... بالرغم من الطعام الطيب الذي أعددته!...

طبيخي، من بطاطا الجبل، وقرنَي فلفل أخضر، وخبز أبيض، وقليلٌ من شحم الخنزير، وفوق هذا كله الرُّب مع القرع وقشر الليمون. لأنَّ ما يتطلب العناية، ما يحتاج إلى عناية، أتولّى العناية به بيدي!

(خلال هذا المونولوج كلّه تبدي حيوية كبيرة، فتنتقل من مكان إلى آخر، ترتب الكراسي، وتقصّ فتيلة القنديل، وتنفض الزغب عن ثوبها).

الــطـــفـــل: (عند الباب). أما زلتِ متضايقة؟

الإســكـافيّـة: إلى أين أنت ذاهب يا تحفة الحيِّ الصغير؟

الطفل: (وهو لا يزال عند الباب) أنتِ لن تؤنِّبيني، أليس كذلك؟ فأمي تضربني أحياناً، ولكنني أحبها عشرين مكيالاً arrobas، أما أنتِ فأحبك اثنين وثلاثين مكيالاً ونصف.

الإسكافيّة: لماذا أنتَ بهذا اللطف؟

(تُجلس الطفل على ركبتيها).

الطفل: جئت لأخبرك بشيء لا يريد أحد أن يخبرك به. قالوا لي اذهب أنت، اذهب أنت، اذهب أنت، لأنه لا أحد يريد المجيء. عندئذ قالوا: «فليذهب الطفل»... لأنه خبر مهول. ولا يريد أحد أن يخبرك به.

الإسكافيّة: أخبرني بسرعة، ماذا حدث؟

الطفل: لا ترتعبي، فالخبر ليس عن أي موت.

الإسكافيّة: هيا، تكلّم!

الطفل: انظري يا إسكافية...

(تدخل فراشة من النافذة، فينزل الطفل عن ركبتي الإسكافيّة، ويبدأ التراكض) فراشة، فراشة... أليس لديك قبعة؟... إنها صفراء، وبها بقع زرقاء وحمراء و...، ما أدراني أنا!...

الإسكافيّة: ولكن، بني...، ألا تريد أن...؟

الطفل: (بحيوية) اصمتي، تكلمي بصوتٍ خافت، ألا ترين أنها ستهرب؟ آي! أعطني منديلك!

الإسكافيّة: (وقد اندمجت في لعبة اصطياد الفراشة) خذه.

الطفل: هس!... لا تدوسي الأرض بقوة.

الإسكافيّة: لن تتوصل إلا جعلها تهرب.

الطفل: (يغني بصوتٍ خفيض، كما لو أنّه يسحر الفراشة).

فراشة الهواء،
كم أنتِ جميلة،
فراشة الهواء،
مذهبة وخضراء،
يا نور القنديل،

يا فراشة الهواء،
ظلّي هنا، هنا، هنا!..
لا تريدين التوقّف،
التوقّف لا تريدين.
يا فراشة الهواء،
مذهبة وخضراء،
يا نور القنديل،
يا فراشة الهواء،
ظلي هنا، هنا، هنا!...
ظلي هنا!

يا فراشة، هل أنت هنا؟

الإسكافيّة: (مازحة) نعـ.........ـم.

الطفل: لا، هذا لا ينفع.

(تطير الفراشة)

الإسكافيّة: الآن! الآن!

الطفل: **(يركض فرحاً ومعه المنديل.)** ألا تريدين التوقف؟ ألن تكفي عن الطيران؟

الإسكافيّة: **(وهي تعدو أيضاً في الجهة الأخرى)** إنها تهرب. إنها تهرب!

(يخرج الطفل راكضاً من الباب في أثر الفراشة)

الإسكافيّة: **(باندفاع)** أين تذهب؟

الطفل: **(يتوقف فوراً)** صحيح!

(بسرعة) ولكنني لست المذنب!

الإسكافيّة: هيا! ألن تخبرني بما حدث؟ أسرع!

الطفل: آي، انظري...، زوجك... الإسكافي، ذهب ولن يعود أبداً.

الإسكافيّة: **(مذعورة)** كيف؟

الطفل: نعم، نعم. هذا ما قاله في بيتنا قبل أن يركب في العربة. وقد رأيته أنا...، وطلب منا أن نخبرك، والقرية كلها تعرف ذلك...

الإسكافيّة: **(تجلس متهالكة)** غير ممكن، هذا غير ممكن. لا أصدق ذلك!

الطفل: بل هو صحيح، ولا تؤنبيني.

الإسكافيّة: **(تنهض غاضبة وتخطو خطوات قوية على الأرض).** أهكذا يكافئني؟ هكذا يكافئني؟

(يختبئ الطفل وراء المنضدة)

الطفل: دبابيس شعرك تتساقط.

الإسكافيّة: ماذا سيحل بي وأنا وحيدة في هذه الدنيا؟ آي، آي، آي!

(يخرج الطفل راكضاً، النافذة والأبواب تغصّ بالجيران).

نعم، نعم، تعالوا للتفرّج عليّ يا ثرثارات، يا متشدِّقات، أنتنّ السبب في ما جرى.

العمدة: انظري، الآن وقد بدأتِ تصمتين، إذا كان زوجك قد هجرك، فلأنك لا تحبينه، ولا يمكن لذلك أن يستمر.

الإسكافيّة: وهل ستعرفون ذلك خيراً مني؟ لقد كنت أحبه، أجل، وكم كنت أحبه. كثير من المتودِّدين الوسيمين والأغنياء لاحقوني، ولم أعطِ أياً منهم كلمة نعم قط. آه يا صغيري المسكين، أية أشياء قالوها لك!

زوجة القندلفت: **(داخلة)** تمالكي نفسك يا امرأة.

الإسكافيّة: لن أستسلم. لن أستسلم. آي. آي.

(تبدأ بالدخول من الباب جارات بملابس ذات ألوان فاقعة، يحملن أكواب شراب مرطّب كبيرة الحجم. يدرن، ويركضن، ويدخلن، ويخرجن، حول الإسكافيّة التي تجلس صارخة مع سرعة الرقص وإيقاعه. التنانير الكبيرة تنفتح مع دورانهن. وجميعهن يتّخذن وضع حزن كوميدي).

الجارة الصفراء: شراب مرطّب.

الجارة الحمراء: شراب منعش.

الجارة الخضراء: منعش للدم.

الجارة السوداء: شراب ليمون.

الجارة البنفسجية: شراب علّيق.

الجارة الحمراء: النعناع أفضل.

الجارة البنفسجية: يا جارة.

الجارة الخضراء: يا جارتي الصغيرة.

الجارة السوداء: يا إسكافية.

الجارة الخضراء: يا صغيرتي الإسكافيّة.

(تُحدث الجارات جلبة هائلة. الإسكافيّة بينهن تبكي صارخة).

ستار

الفصل الثاني

الديكور نفسه. إلى اليسار، منضدة العمل مهملة، وإلى اليمين، منضدة كونتوار عليها زجاجات، وطست ما، حيث تغسل الإسكافيّة الكؤوس. الإسكافيّة وراء الكونتوار. ترتدي ثوباً أحمر بحمرة النار، له تنورة واسعة، وذراعاها مكشوفان. على المنصة منضدتان. يجلس إلى إحداهما دون ميرلو الذي يتناول شراباً مرطباً، وإلى المنضدة الأخرى يجلس الشاب ذو القبعة التي تغطي وجهه.

الإسكافيّة تغسل كؤوساً وأكواباً بهمة عالية، وتضعها على الكونتوار. يظهر في الباب الشاب ذو الحزام وهو يضع القبعة المسطحة كما في الفصل الأول. إنه حزين. ذراعاه متهدّلان وينظر بحنان إلى الإسكافيّة. إذا ما بالغ الممثل أقل مبالغة في هذه الشخصية، يتوجب على مدير المنصة أن يوجه إليه ضربة عصا على رأسه. لا يتوجب على أحد أن يبالغ. فالفارس يتطلب الطبيعية على الدوام. لقد تولّى المؤلف رسم الشخصية. وتولى الخياط إلباسها. ببساطة. يتوقف الشاب عند الباب. يلتفت دون ميرلو والشاب الآخر، وينظران إليه. هذا المشهد يكاد يكون مشهد سينما. نظرات وملامح المجموع تقدّم تعبيراً عن المشهد. تتوقّف الإسكافيّة عن الغسيل وتنظر إلى الشاب بثبات.

(صمت)

الإسكافيّة: تفضل، ادخل.

الشاب ذو الحزام: إذا كنتِ تريدين ذلك...

الإسكافيّة: أنا؟ لا فرقَ عندي على الإطلاق، ولكنني أراكَ في الباب...

الشاب ذو الحزام: مثلما تريدين.

(يستند إلى منضدة الكونتوار. يتمتم بين أسنانه). وهذا واحد آخر سيتوجب عليَّ أن...

الإسكافيّة: ماذا ستشرب؟

الشاب ذو الحزام: سأعمل بنصيحتك.

الإسكافيّة: إلى الباب إذاً.

الشاب ذو الحزام: آه يا إلهي، كيف تتغير الأزمنة!

الإسكافيّة: لا تحسب أني سأنفجر في البكاء. هيا، أتريد أن تتناول كأساً، أم قهوة، أم مرطّباً، ماذا تأمر؟

الشاب ذو الحزام: مرطباً.

الإسكافيّة: لا تحملق فيَّ هكذا، سيندلق الشراب منّي.

الشاب ذو الحزام: إنني أموت، آي!

(تمرُّ أمام النافذة جميلتان تحملان مروحتين ضخمتين. تنظران، ترسمان إشارة الصليب باستنكار، تغطّيان أعنيهما بمروحتيهما، وتمرّان بخطوات قصيرة جداً).

الإسـكـافـيّـة: شرابك المرطّب.

الشاب ذو الحزام: (ناظراً إليها). آه.

الشاب ذو القبّعة: (ناظراً إلى الأرض) آه!

مـيـرلـو: (ناظراً إلى السقف). آه.

(الإسكافيّة تدير رأسها باتجاه الآهات الثلاث)

الإسـكـافـيّـة: يا سلام! أهذه حانة أم مستشفى؟ يا لكم من مخادعين! لو لم أكن مضطرة لكسب عيشي من كؤوس النبيذ التافهة، ومن هذه الحانة البائسة، لأني صرت وحيدة منذ رحل، بسببكم جميعاً، زوج روحي المسكين، كيف كان يمكن لي أن أتحمّل كلّ هذا؟ ما رأيكم؟ سيكون عليّ أن أرمي بكم إلى عرض الشارع.

مـيـرلـو: أحسنت، لقد أحسنت القول.

الشاب ذو القبّعة: أنتِ افتتحتِ حانة، ويمكن لنا أن نبقى هنا ما نشاء من وقت.

الإسـكـافـيّـة: (حانقة) ماذا؟ ماذا؟

(يبدأ الشاب ذو الحزام بالتحرك للخروج وينهض دون ميرلو مبتسماً ومبدياً أنه مطّلع على السرّ، وأنه سيعود)

الشاب ذو القبّعة: ما قلته.

الإسـكـافـيّـة: إذا كنت تقول ما تشاء، فأنا سأقول أيضاً، لتعلم أنت والقرية كلّها. منذ أربعة أشهر رحل زوجي، وأنا لن أستسلم لأحد أبداً، لأن على المرأة المتزوجة أن تحافظ على نفسها مثلما أراد الرب، أنا لا

أخشى أحداً، أتسمعني؟ ففي عروقي تجري دماء جدي، ليحفظه الله في ملكوته، وقد كان مروض خيول، ورجلاً بكل ما تعنيه الرجولة، كنت محترمة، ومحترمة سأبقى، وقد ارتبطت بزوجي حتى الموت. إذا كنت تقول ما تشاء، فأنا سأقول أيضاً، لتعلم أنت والقرية كلها. منذ أربعة أشهر رحل زوجي، وأنا لن أستسلم لأحد أبداً، لأن على المرأة المتزوجة أن تحافظ على نفسها مثلما أراد لها الرب. أنا لا أخشى أحداً، أتسمعني؟ ففي عروقي تجري دماء جدي، ليحفظه الربّ في ملكوته، وقد كان مروّض خيول، ورجلاً بكل ما تعنيه الرجولة. كنت محترمة، ومحترمة سأبقى. وقد ارتبطت بزوجي، حتى الموت.

(يخرج السيد ميرلو من الباب بسرعة، ويقوم بإشارات تعني أن هناك علاقة بينه وبين الإسكافيّة).

الشاب ذو القبّعة: (ينهض). لدي من الجسارة ما يكفي لأن أمسك ثوراً من قرنيه، وأمرغ عنقه في الرمل، ثم آكل بعد ذلك نخاعه نيئاً بأسناني هذه، وأنا واثق من أنني لن أملّ العض.

(يخرج مسرعاً ويهرب دون ميرلو باتجاه اليسار).

الإسـكـافـيّـة: (ويديها على رأسها). يا يسوع، يا يسوع، يا يسوع! (تجلس).

(يدخل الطفل من الباب، يتجه نحو الإسكافيّة ويغطي عينيها براحتيه).

الـــطـــفــــل: من أنا؟

الإســـكـــافـــيّـــة: صغيري، راعي بيت لحم الصغير.

الـــطـــفــــل: إنني هنا.

(يتعانقان)

الإســـكـــافـــيّـــة: جئت من أجل وجبة العصر؟

الـــطـــفــــل: إذا كنتِ تريدين تقديمها لي...

الإســـكـــافـــيّـــة: لدي لك اليوم قطعة شوكولاته.

الـــطـــفــــل: حقاً؟ أنا أحبّ كثيراً البقاء في بيتك.

الإســـكـــافـــيّـــة: (تعطيه الشوكولاته). لم أنتَ ممتع جداً؟

الـــطـــفــــل: ممتع جداً؟ أترين هذه البقعة الزرقاء في ركبتي؟

الإســـكـــافـــيّـــة: دعني أرَ.

(تجلس على كرسي منخفض وتأخذ الطفل بين ذراعيها).

الـــطـــفــــل: أحدثها لي كونييّو لأنه كان يغني... مقاطع الأغنية التي نظموها عنك، فلطمته على وجهه، وقذفني هو بحجر، باف! انظري.

الإســـكـــافـــيّـــة: هل تؤلمك كثيراً؟

الـــطـــفــــل: الآن لا... ولكنني بكيت.

الإســـكـــافـــيّـــة: لا تهتم بما يقولونه.

الـــطـــفــــل: ولكنها أشياء غير مهذبة، أشياء غير مهذبة وأنا أعرف الأغنية، أتعلمين؟ ولكنني لا أريد أن أقولها.

الإســـكـــافـــيّـــة: (تضحك) لأنك إذا قلتها سأحضر فلفلاً حاراً وأجعل لسانك مثل جمرة.

(يضحكان).

الـــطـــفــــل: ولكن، لماذا يلقون عليك الذنب في رحيل زوجك؟

الإســـكـــافـــيّـــة: هم، هم المذنبون في رحيله، وهم سبب شقائي.

الـــطـــفــــل: لا تقولي هذا أيتها الإسكافيّة الصغيرة.

الإســـكـــافـــيّـــة: كنت أرى نفسي في عينيه. حين كنت أراه يأتي ممتطياً مهرته البيضاء.

الـــطـــفــــل: (يقاطعها) ها، ها، ها! إنك تخدعينني. السيد الإسكافي لم تكن لديه مهرة.

الإســـكـــافـــيّـــة: كن مؤدباً يا صغير، كانت لديه مهرة، بالطبع كانت لديه، ولكن...، ولكنك لم تكن قد ولدت بعد.

الـــطـــفــــل: (يمر بيده على وجهها). آه! هكذا إذاً! معك حق!

الإســـكـــافـــيّـــة: انظر... عندما عرفته كنت أغسل الثياب عند جدول القرية. نصف متر من الماء، وحصى القاع تظهر للعيان ضاحكة، تضحك من اهتزاز الماء. وجاء ببذلة سوداء محكمة، وربطة عنق حمراء من حرير فاخر، وأربعة خواتم في أصابعه تلمع كأنها أربع شموس.

الـــطـــفــــل: هذا بديع!

الإســـكـــافـــيّـــة: نظر إليّ ونظرت إليه. استلقيتُ على العشب. وما زال يخيّل إليّ أنني أحسّ في وجهي بالنسيم البارد الذي كان يأتي من بين الأشجار. أوقف حصانه،

وكان ذيل الحصان أبيض وطويلاً جداً يصل إلى ماء الجدول.

(تكاد الإسكافيّة أن تبكي. يبدأ سماع غناء بعيد.) فزعت كثيراً، وأفلت مني منديلان بديعان، صغيران بهذا الحجم، وجرفهما التيار.

الطفل: يا للمشهد المضحك!

الإسكافيّة: عندئذٍ قال لي...

(يُسمع الغناء وقد صار أقرب. صمت) هسس!...

الطفل: (ينهض) الأغنية.

الإسكافيّة: الأغنية!

(صمت. كلاهما يصغي) أتعرف ما يقولونه؟

الطفل: (يومئ بيده) نصف، نصف.

الإسكافيّة: غنها لي إذاً، أريد أن أعرفها.

الطفل: لماذا؟

الإسكافيّة: كي أعرف لمرة واحدة ما الذي يقولونه عني.

الطفل: (يغني وهو يضبط الإيقاع بقدميه) اسمعي:

السيدة الإسكافيّة،
بعد رحيل زوجها،
فتحت حانة،
يرتادها السادة.

الإسكافيّة: سأجعلهم يدفعون الثمن!

الطفل: (يضبط الإيقاع بالنقر بيديه على المنضدة)

من الذي اشترى لك يا إسكافية

أقمشة ثيابك،
وبلوزاتك الرقيقة،
المطرزة بالدانتيلا؟
العمدة يتودد إليها،
دون ميرلو يتودد إليها،
إسكافية، يا إسكافية،
لقد ضعت يا إسكافية!

(يمكن الآن تمييز الأصوات التي صارت أقرب وأوضح مع ما يرافقها من دفوف. تتناول الإسكافيّة شالاً حريرياً وتلقي به على كتفيها)

الطفل: (مذعوراً). إلى أين أنتِ ذاهبة؟

الإسكافيّة: سيدفعون بي أخيراً إلى شراء مسدس!

(يبتعد الغناء. تركض الإسكافيّة نحو الباب، ولكنها تصطدم بالعمدة الذي يدخل بخيلاء وهو يضرب الأرض بعصاه).

العمدة: من يقوم على الخدمة؟

الإسكافيّة: الشيطان!

العمدة: ما الذي يحدث؟

الإسكافيّة: ما كان عليك أن تعرفه منذ وقت طويل.. ما كان عليك كعمدة ألا تسمح به. الناس يرددون أغنيات عني، والجيران يسخرون مني أمام أبوابهم، ولأنه لا زوج لي يحميني، فإنني خارجة للدفاع عن

نفسي، فالسلطات في هذه القرية مجرد قرع أجوف، أصفار على اليسار، كركوزات غبية.

الطفل: أحسنت القول.

العمدة: (باندفاع) أيها الصغير، يا ولد، كفى صراخاً...
(إلى الإسكافيّة) هل تعرفين ما الذي فعلته الآن؟ أدخلت اثنين أو ثلاثة من هؤلاء الذين يغنون إلى السجن.

الإسكافيّة: هذا ما أرغب في رؤيته!

صوت: (من الخارج) يا صغير!

الطفل: أمي تناديني!
(يركض إلى النافذة) ماذا!!!! وداعاً، إذا أنت رغبت أستطيع أن آتيك بسيف جدي الذي ذهب إلى الحرب. أنا لا أستطيع استعماله، ألا تعلمين؟ أما أنت فتستطيعين.

الإسكافيّة: (مبتسمة) كما تشاء!

صوت: (في الخارج) يا صغير!

الطفل: (وقد صار في الشارع) ماذا!!!؟

العمدة: أرى أن هذا الطفل العليم اللعوب هو الشخص الوحيد الذي تحسنين معاملته في القرية.

الإسكافيّة: ألا تستطيع أن تنطق كلمة واحدة دون أن تزعج... ما الذي يضحك مقامك السامي؟

العمدة: رؤيتك مبددة ومهدورة وأنت بهذا الجمال!

الإسكافيّة: أفضل كلباً عليك!
(تسكب له كأس نبيذ).

العمدة: يا لخيبة الأمل من هذه الدنيا! عرفت نساء كثيرات كأنهن شقائق النعمان، كأنهن ورود فواحة...، نساء سمراوات، عيونهن كحبر النار، نساء تفوح شعورهنّ برائحة الياسمين، وأيديهنّ متأجّجة على الدوام، نساء يمكن إحاطة خصورهنّ بهذين الإصبعين، أما مثلك، لا وجود لمن هي مثلك. أول أمس، ظللتُ مريضاً طوال الصباح، لأني رأيت قميصين من قمصانك بشرائط سماوية، منشورين في المرج، فكأنني كنتُ أراكِ أنتِ يا إسكافية روحي.

الإسكافيّة: (منفجرة بالغضب) اخرس أيها العجوز، اخرس. من له بنات شابات وأسرة كبيرة عليه ألا يغازل بهذه الطريقة الوقحة وغير المحترمة.

العمدة: إني أرمل.

الإسكافيّة: وأنا متزوجة.

العمدة: لكن زوجك هجرك ولن يعود، إنني متأكد من ذلك.

الإسكافيّة: وأنا سأعيش كما لو أنه معي.

العمدة: ولكنني متأكد، وهو من قال لي، إنه لا يحبك ولو بهذا القدر.

الإسكافيّة: وأنا متأكدة من أن زوجاتك الأربع، لتنزل عليهن صاعقة، يمقتنك حدَّ الموت.

العمدة: (يضرب الأرض بعصاه) لقد بدأنا!

الإسكافيّة: (ملقية بكأس) بدأنا!

العمدة: (بين أسنانه) لو أخذتك على ذمتي، لأحسنت ترويضك!

الإسكافيّة: (ساخرة) ما الذي تقوله؟

العمدة: لا شي. كنت أفكر... لو أنك كنت عاقلة كما يجب أن تكوني، لعرفت أن لدي الإرادة والجرأة لأن أسجل باسمك، أمام الكاتب بالعدل، داراً جميلة.

الإسكافيّة: وماذا؟

العمدة: وفيها صالون كلف خمسة آلاف ريال، ومزهريات موائد بديعة، وستائر بروكار، ومرايا كبيرة.

الإسكافيّة: وماذا أيضاً؟

العمدة: (بصوت صادح) وفي الدار سرير تتوجه نقوش عصافير وسوسن من النحاس، وحديقة فيها ست نخلات، ونافورة ماء فوارة، ولكن البيت ينتظر، ليكون سعيداً، واحدة أعرف أنها راغبة في الإقامة في صالاته... حيث ستكون..

(متوجهاً إلى الإسكافيّة) انظري... ستكونين مثل ملكة!

الإسكافيّة: (ساخرة) أنا غير معتادة على هذا الترف. اجلس أنت في الصالون، ونم أنت في السرير، وانظر أنت إلى نفسك في المرايا، وتوقف فاتحاً فمك تحت النخلات بانتظار أن تسقط فيه حبات التمر، أما أنا فلن أتزحزح عن كوني إسكافية.

العمدة: وأنا لن أتزحزح عن كوني العمدة. ولكن عليك أن تعلمي أن نيل الأماني ليس في كثرة الازدراء.

(يقولها بسخرية)

الإسكافيّة: وعليك أنت أن تعلم أنك لا تروقني، لا أنت ولا أحد في هذه القرية. وأنت لست سوى عجوز هرم!

العمدة: (ساخطاً) سينتهي بي الأمر إلى الزجّ بك في السجن.

الإسكافيّة: تجرّأ على فعل ذلك!

(يُسمع في الشارع عزف بوق مرح ومضحك)

العمدة: ما تراه يكون؟

الإسكافيّة: (سعيدة ومفتوحة العينين) دمى متحركة!

(تربت على ركبتيها)

(تمرّ امرأتان أمام النافذة).

الجارة الحمراء: دمى متحركة!

الجارة البنفسجية: دمى متحركة.

الطفل: (من النافذة). أتكون معهم قرود؟ هيا بنا نرى!

الإسكافيّة: (للعمدة) سأغلق الباب!

الطفل: إنهم آتون إلى بيتك!

الإسكافيّة: صحيح؟

(تقترب من الباب)

الطفل: انظري!

(يظهر الإسكافي في الباب متنكّراً. يحمل بوقاً، وعلى ظهره لفافة كرتونية؛ ويحيط به الناس. تظل الإسكافيّة في وضع متيقّظ، ويقفز الطفل من النافذة ويمسك بأذيال ثوبها).

الإسكافي: مساء الخير.

الإسكافيّة: مساء الخير أيها السيد الكراكوزاتي.

الإسكافي: أيمكنني الاستراحة هنا؟

الإسكافيّة: وأن تشرب، إذا أحببت.

العمدة: تفضل أيها الرجل الطيب، وتناول ما تشاء، أنا سأدفع.

(إلى الجيران) وأنتم، ماذا تفعلون هنا؟

الجارة الحمراء: نحن في الشارع، ولا أظن أننا نضايق أحداً.

(يسترق الإسكافي النظر إلى ما حوله خفية. يضع لفافة الكرتون على المنضدة).

الإسكافي: اتركهم أيها السيد العمدة...، أظن أنك السيد العمدة، فمنهم أكسب عيشي.

الطفل: أين سمعتُ هذا الرجل؟

(الطفل يرمقُ الإسكافي طوال المشهد بنظرات استغراب). هيا، حرّك الدمى.

(الجيران يضحكون)

الإسكافي: بعد أن أشرب كأساً من النبيذ.

الإسكافيّة: **(فرحة)** ستفعل ذلك في بيتي؟

الإسكافي: إذا سمحتِ لي.

الجارة الحمراء: أيمكننا الدخول إذاً؟

الإسكافيّة: **(بصرامة)** تستطعنَ الدخول

(تقدّم كأساً إلى الإسكافي)

الجارة الحمراء: **(وهي تجلس)** فلنستمتع قليلاً.

(يجلس العمدة)

العمدة: هل أنتَ آت من مكان بعيد؟

الإسكافي: بعيد جداً جِداً.

العمدة: من إشبيلية؟

الإسكافي: زد في الفراسخ.

العمدة: من فرنسا؟

الإسكافي: زد في الفراسخ.

العمدة: من إنكلترا؟

الإسكافي: من جزر الفيلبين.

(تغمغم الجارات عجباً. الإسكافيّة منتشية).

العمدة: وهل رأيت المتمردين هناك؟

الإسكافي: مثلما أرى حضراتكم الآن.

الطفل: وكيف هم؟

الإسكافي: مشاكسون. تصوروا أنهم جميعاً تقريباً إسكافيون.

(الجارات ينظرن إلى الإسكافيّة)

الإسكافيّة: (متحرّقة) أليس بينهم من يعملون في مهنٍ أخرى؟

الإسكافي: مطلقاً... الجميع في جزر الفيلبين إسكافيون.

الإسكافيّة: ربما كان أولئك الإسكافيون في الفيلبين حمقى... أما هنا، في هذه البلاد، فمنهم أذكياء، وأذكياء جداً.

الجارة الحمراء: (متملقة) أحسنت القول.

الإسكافيّة: (بجفاء) لم يسألك أحد عن رأيك.

الجارة الحمراء: بنيتي!

الإسكافي: (متحمساً. يقاطع كلامهما). يا للنبيذ الجيد!

(بصوتٍ أقوى) يا للنبيذ اللذيذ!

(صمت) نبيذ عنب أسود كروح بعض النساء اللاتي أعرفهنّ.

الإسكافيّة: من لهنّ تلك الروح!

العمدة: هس! وما هي طبيعة عملك؟

الإسكافي: (يشرب الكأس كله، ويتلمظ مفرقعاً بلسانه، وينظر إلى الإسكافيّة). آي! إنه عمل قليل المظهر لكنه يتطلب كثيراً من العلم. إني أعرض الحياة من داخلها، لدي قصص مصورة عن الإسكافي الوديع، وعن مردة الإسكندرية، وسيرة حياة دون دييغو كوربيتنس، ومغامرات فرانشيسكو إستيبان الجميل، وخاصة فن لجم النساء الثرثارات اللجوجات.

الإسكافيّة: كل هذه الأشياء كان يعرفها زوجي المسكين!

الإسكافي: عسى أن يكون الله قد سامحه!

الإسكافيّة: قل....

(الجارات يضحكن)

الطفل: اصمتن!

العمدة: (بتسلط) الصمت! هذه دروس مفيدة لجميع المخلوقات يمكن البدء حيث نشاء.

(يبسط الإسكافي لفافة الكرتون، وتظهر عليها قصة مصورة، مقسمة إلى لوحات صغيرة، ملونة بالمغرة وألوان صارخة، يبدأ الجيران بالتحرك مقتربين، تُجلس الإسكافيّة الطفل على ركبتيها).

الإسكافيّة: انتبهوا.

الطفل: آي! رسم بديع!

(يعانقُ الإسكافيّة).

الإسكافيّة: انتبه جيداً إلى القصة، فقد لا أفهم كل شيء.

الطفل: لن تكون، بكل تأكيد، أصعب على الفهم من التاريخ المقدّس.

الإسكافي: أيها الجمهور المحترم: اسمعوا يا سادة القصة الحقيقية والمفيدة عن المرأة ذات الشعر الأصهب والرجل الصغير الصابر. اسمعوا، لتكون عبرة وأمثولة لكل الناس في هذه الدنيا.

(بصوت كئيب) أرهفوا سمعكم افتحوا ذهنكم.

(يمدّ الجيران رؤوسهم، تمسك بعض النساء بأيدي بعضهنّ)

الطفل: ألا يشبه محرك الدمى، حين يتكلم، زوجك؟

الإســــكـافـيّـة: كان صوت زوجي أكثر عذوبة.

الإســــكـافي: مستعدون؟

الإســــكـافـيّـة: أحس بقشعريرة في بدني.

الـــطـــفـــل: وأنا أيضاً!

الإســــكـافي: (وهو يشير بمؤشر)

في مزرعة قرطبة،

وسط حقول الزنبق والدفلى،

كان يعيش سروجي

مع زوجته السروجية.

(لحظة ترقّب)

الزوجة امرأة مشاكسة،

أما الرجل فواسع الصبر،

هي في حوالي العشرين،

وهو تجاوز الخمسين.

ويا إلهي، كما كانا يتشاجران!

انظروا إلى المتوحّشة،

تخدع الزوج الضعيف

بعينيها ولسانها.

(على اللوحة الكرتونية رسم امرأة تنظر نظرة طفولية وضجرة)

الإســــكـافـيّـة: يا لها من امرأة خبيثة!

(تمتمات)

الإســــكـافي: شعر إمبراطورة

كان للسروجية،

وبشرة كأنها الماء

يا للفارس النذل

الذي يسرق حبك عند الباب!

شفافة كبلور لوسين.

وعندما تهزّ ثوبها

في موسم الربيع

تعبق كل ثيابها

بعطر الليمون والنعناع.

آي، يا له من ليمون،

ليمون الليمونية!

ويا لك من شهية

أيتها السروجية!

(الجيران يضحكون)

انظروا كيف يغازلها

شبان بهيو الطلعة

على جياد لامعة

تملؤها شرابات الحرير

رجال أشراف ومهيبون
يمرّون أمام بابها
مظهرين، عن عمد،
بريق سلاسلهم الذهبية.
ومعهم جميعاً
تتبادل السروجية الحديث،
وهم يديرون خيولهم
على حجارة الطريق.
انظروا إليها تكلم أحدهم
وهي بأحسن تسريحة وأجمل هندام،
أما الزوج المسكين،
فيغرز في الجلد مخرزه.

(بدراماتيكية بالغة. ومقاطعاً يديه)

أيها الزوج العجوز والمحترم،
يا من تزوجت فتاة غضة،
يا للفارس النذل
الذي يسرق حبك عند الباب.

(الإسكافيّة التي كانت تطلق الزفرات والتأوهات، تنفجر في البكاء)

الإسكافي: (ملتفتاً إليها). ما الذي أصابك؟

العمدة: ولكن، أيتها الصغيرة؟

(يضرب الأرض بعصاه)

الجارة الحمراء: من لديه ما يخفيه، يبكي دائماً!

الجارة البنفسجية: تابع أيها السيد!

(الجيران يتمتمون ويتهامسون)

الإسكافيّة: القصة تحزنني كثيراً ولا أستطيع كبح نفسي، ألا ترى؟ لا أستطيع كبح نفسي.

(تبكي وهي تحاول كبح بكائها، فتطلق شهقات مضحكة جداً).

العمدة: هس.

الطفل: أترين؟

الإسكافي: لا تقاطعوني من فضلكم! من المعروف أنه ليس عليكم أن تحفظوا القصة عن ظهر قلب.

الطفل: (متأوهاً) هذا صحيح!

الإسكافي: في صبيحة يوم اثنين
حوالي الحادية عشرة والنصف،
عندما لا تخلّف الشمس ظلاً
للقصب وشجيرات زهر العسل،
عندما يتراقص بسعادة
النسيم والزعتر البري في الجبل
وتأخذ بالتساقط

أوراق القطلب الخضراء،
كانت السروجية المشاكسة
تسقي أزهار منثورها.
جاء صاحبها يعدو خبباً
على مهرة قرطبية
وقال لها متنهداً:
إذا رغبت يا جميلتي،
يمكننا العشاء غداً،
على مائدتك، وحدنا على انفراد.
وماذا أفعل بزوجي؟
لن يعلم زوجك بالأمر.
وما الذي ستفعله؟ سأقتله.
إنه متيقظ. ربما لا تستطيع.
هل لديك مسدس؟
بل أفضل!، لدي موسا حلاقة!
وهل هي قاطعة؟
أكثر من البرد.

(تغطي الإسكافيّة عينيها، وتشدّ الطفل إليها، الجيران جميعهم في أقصى حالات الترقّب الذي يبدو واضحاً على ملامحهم)

وليس فيها ثلمة واحدة
ألست تكذب؟
سأطعنه عشر طعنات صائبة
بهذا الترتيب
الذي يبدو لي رائعاً:
أربع طعنات في أسفل الظهر،
وواحدة في الثدي الأيسر،
وأخرى في الجهة المقابلة
واثنتان في كلّ ردف.
وهل ستقتله على الفور؟
حين يعود هذه الليلة
مع جلوده وخيوطه التي من ذيول الجياد
عند منعطف الساقية

(مع هذه الجملة الأخيرة، وبأقصى سرعة، تُسمع من خارج المشهد صرخة مغمومة وقوية جداً، فينهض الجيران، تُسمع صرخة أخرى أكثر قرباً، تسقط من يد الإسكافيّة الستارة والمؤشر، الجميع يرتجفون بصورة كوميدية مضحكة).

الجارة السوداء: (عند النافذة). لقد استلّوا الخناجر.
الإسكافيّة: آي، رباه!
الجارة الحمراء: رحماك أيتها العذراء المقدسة!

الإسكافي: يا للفضيحة!

الجارة السوداء: إنهم يقتتلون! يتطاعنون بالخناجر بسبب هذه المرأة!

(تشير إلى الإسكافيّة)

العمدة: (بعصبية) هلمّوا بنا ولنرَ!

الطفل: أشعر بخوف شديد!

الجارة الخضراء: أسرعوا، أسرعوا!

(يأخذون بالخروج).

صوت: (في الخارج) بسبب هذه المرأة الخبيثة!

الإسكافي: لا يمكنني التسامح في هذا الأمر، لا يمكنني أن أتسامح!

(يركض على المنصة وهو يضع يديه على رأسه)

(الجميع يخرجون مسرعين وسط تأوهات ونظرات عداء إلى الإسكافيّة، فتسرع هذه إلى إغلاق النافذة والباب)

الإسكافيّة: أرأيت أي خزي؟ أقسم لك بدم أبينا يسوع الغالي، أني بريئة. آه! ما الذي سيكون قد حدث يا تُرى؟... انظر، انظر كيف أرتجف.

(تُريه يديها) أشعر كأنّ يدي تريدان الإفلات والهرب لحالهما.

الإسكافي: اهدئي يا صبية. هل زوجك في الشارع؟

الإسكافيّة: (تنفجر في البكاء) زوجي؟ آي يا سيدي!

الإسكافي: ماذا أصابك؟

الإسكافيّة: زوجي هجرني بسبب الناس، وأنا الآن وحيدة، بلا عطف من أحد.

الإسكافي: مسكينة!

الإسكافيّة: بالرغم من كل حبي له! لقد كنت أعبده!

الإسكافي: (باندفاع) هذا غير صحيح!

الإسكافيّة: (تتوقف فجأة عن البكاء) ما الذي تقوله؟

الإسكافي: أقول إن هذا أمر... أمر لا يمكن فهمه... يبدو كأنه غير صحيح.

(مضطرباً)

الإسكافيّة: إنك محق، ولكنني لم أعد آكل منذ رحيله، ولا أنام، ولا أعيش؛ لأنه كان سعادتي، كان سندي.

الإسكافي: تحبينه كل هذا الحب، وهجرك؟ أرى أن زوجك كان رجلاً قليل الذكاء.

الإسكافيّة: من فضلك، احفظ لسانك في جيبك. لم يسمح لك أحد بإبداء رأيك.

الإسكافي: اعذريني، لم أقصد...

الإسكافيّة: أعني... كم كان ذكياً!...

الإسكافي: (بسخرية) نعـ.....ـم؟

الإسكافيّة: (بحماسة) نعم. أترى كل هذه القصص والتسالي التي تغنيها وتحكيها في القرى؟ كل هذا ليس إلا سخافة بالمقارنة مع ما يعرفه هو...، فهو يعرف... ثلاثة أضعاف ما تعرفه!

الإسكافي: (جاداً) غير ممكن.

الإسكافيّة: (بحماسة) وأربعة أضعاف... كان يرويها لي كلها عندما نستلقي لننام، قصص قديمة لم تسمع ولو بذكرها...
(بدلال) وكنت أشعر بالخوف... فكان يقول لي: «هذا لا يحدث إلا اختلاقاً وكذباً يا غالية روحي!».

الإسكافي: (مغتاظاً) هذا كذب!

الإسكافيّة: (بدهشة) ايه؟... هل فقدت عقلك؟

الإسكافي: هذا كذب!

الإسكافيّة: (ساخطة) ولكن، ما هذا الذي تقوله يا كركوزاتي الشيطان؟

الإسكافي: (بقوة وهو ينهض واقفاً) أقول إن زوجك كان محقاً تماماً. فهذه القصص ليست إلا أكاذيب، إنها تخيلات وحسب.
(يقول ذلك بجفاء)

الإسكافيّة: (بجفاء) هذا طبيعي يا سيدي. يبدو أنك تحسبني بقرة حمقاء... ولكن لا يمكنك أن تنكر أن لتلك القصص وقعها المؤثر.

الإسكافي: آه، هذه مسألة أخرى! لها وقعها في النفوس القابلة للتأثر.

الإسكافيّة: الجميع لهم مشاعر.

الإسكافي: لكل رأيه هنا. فقد عرفت أناساً كثيرين بلا مشاعر. في قريتي كانت تعيش امرأة... في أحد الأزمنة، وكان لها من خبث القلب ما يسمح لها بالتحدث، من النافذة، إلى أصدقائها من الرجال، بينما زوجها منكب على الأحذية والأبواط من الصباح حتى الليل.

الإسكافيّة: (تنهض وتمسك بكرسي) أتقول هذا عني؟

الإسكافي: كيف؟

الإسكافيّة: إذا كنت تلمِّحُ إليَّ، فتكلم مباشرة! كن شجاعاً!

الإسكافي: (بتذلّل). آنستي، ما الذي تقولينه؟ وما أدراني من تكونين؟ أنا لم أغضبك في شيء، فلماذا تسيئين إليّ هكذا؟ ولكنه قدري!
(يكاد يبكي)

الإسكافيّة: (باندفاع، ولكنها متأثرة) انظر أيها الرجل الطيب، لقد تكلمت بهذه الطريقة لأني على الجمر؛ الجميع يحاصرونني؛ الجميع يلومونني، فكيف لا تريدني أن أتلقف أدنى فرصة للدفاع عن نفسي؟ أنا وحيدة، وأنا شابة، ولا أعيش إلا على ذكرياتي...
(تبكي)

الإسكافي: (متباكياً) إني أفهمك أيتها الشابة الرائعة، أنا أفهم أكثر مما يمكن لك أن تتصوري، لأن... عليك أن تعرفي، مع كل أنواع التحفظ، أن وضعك... أجل، لا مجال للشك، مطابق لوضعي.

الإسكافية: **(مذهولة)** أهذا ممكن؟

الإسكافي: **(يتهاوى على المنضدة)** أنا أيضاً... هجرتني زوجتي!

الإسكافية: لن يكفيها الموت لتدفع ثمن خطيئتها!

الإسكافي: كانت تحلم بعالم ليس عالمي، كانت واهمة ومتسلطة، تحب الأحاديث والأشياء الحلوة التي لا أستطيع توفيرها لها. وفي يوم عاصف، رياحه أعاصير، هجرتني إلى الأبد.

الإسكافية: وما الذي تفعله أنت الآن، وأنت تجوب العالم؟

الإسكافي: أبحث عنها لأسامحها وأعيش معها القليل المتبقي لي في الحياة. ففي سني تكون الحياة قاسية في هذه النزل والحانات البائسة التي نسيها الرب.

الإسكافية: **(بسرعة)** خذ قليلاً من القهوة الساخنة، ستمنحك الصحة بعد كل هذا الصخب.

(تتجه إلى منضدة الكونتوار لتسكب القهوة، وتدير ظهرها للإسكافي)

الإسكافي: **(يرسم إشارة الصليب بمبالغة، ويفتح عينيه على اتساعهما)** فليكافئك الرب أيتها القرنفلة الحمراء.

الإسكافية: **(تقدم له الفنجان، تستبقي الصحن في يدها، ويشرب هو رشفات صغيرة)** أهي جيدة؟

الإسكافي: **(متملقاً)** بما أنها من صنع يديك!

الإسكافية: **(باسمة)** شكراً جزيلاً!

الإسكافي: **(عند الرشفة الأخيرة)** آي! كم أحسد زوجك!

الإسكافية: لماذا؟

الإسكافي: **(مغازلاً)** لأنه تزوج من أروع امرأة على وجه الأرض!

الإسكافية: **(مفتونة)** يا لحلاوة كلامك!

الإسكافي: ويسعدني الآن أن أنصرف، لأنك وحيدة، وأنا وحيد، أنت باهرة الجمال. وأنا لساني في موضعه، وأخشى أن يفلت مني تلميح ما...

الإسكافية: دع عنك هذا! بالله عليك، ما الذي تتصوره؟ أنا أحتفظ بقلبي بأجمعه لذاك الذي يجوب الدنيا، ذاك الذي أدين له... زوجي!

الإسكافي: **(ببهجة كبيرة، يلقي بالقبعة إلى الأرض)**. يا لهذه الروعة! هكذا هنّ النساء الحقيقيات، هكذا!

الإسكافية: **(بشيء من السخرية، وقد فوجئت)**. يبدو لي أنك... بعض الشيء...

(تضع يدها على صدغها).

الإسكافي: مثلما تشائين، ولكن اعملي وأدركي أنني غير مغرم بأحد سوى امرأتي، زوجتي الشرعية!

الإسكافية: وأنا أحب زوجي ولا أحد سوى زوجي، كم قلت ذلك كي يسمعه حتى الصم.

(تقاطع يديها) آه، لإسكافي روحي الصغير!

الإسكافي: **(على حدة)** آه، يا إسكافية قلبي الصغيرة!

(طرقات على الباب)

الإسكافية: يا يسوع! تظل إحدانا هنا في دوامة المفاجآت، من هناك؟

الطفل: افتحي!

الإسكافيّة: ولكن، أهذا ممكن؟ كيف جئت؟

الطفل: آي، جئت راكضاً لأخبرك!

الإسكافيّة: ماذا حدث؟

الطفل: شابان أو ثلاثة شبان طعنوا بعضهم بعضاً بالخناجر، ويقولون إنك السبب، جراحهم تنزف دماً، والنساء كلهن ذهبن إلى القاضي لطردك من القرية. آي! والرجال يريدون من القندلفت أن يقرع الأجراس ليغنوا عنك.

(الطفل يلهث وينضح عرقاً).

الإسكافيّة: (للإسكافي) هل ترى؟

الطفل: الساحة كلها ممتلئة بالتجمعات...، كأنه مهرجان...، والجميع ضدك.

الإسكافي: أنذال! أشعر برغبة في الخروج للدفاع عنك.

الإسكافيّة: ولماذا؟ سيزجون بك في السجن، أنا من عليها الذهاب والقيام بأمر كبير.

الطفل: من نافذة غرفتك تستطيعين رؤية الجلبة في الساحة.

الإسكافيّة: (بسرعة) هيا بنا، أريد التحقق من خبث الناس.

(تخرج بسرعة)

الإسكافي: أجل، أجل، أنذال...؛ قريباً سأصفي الحساب مع الجميع، وسأجعلهم يدفعون الثمن غالياً... آه، يا بيتي الصغير، أي دفء لطيف ينبعث من نوافذك وأبوابك! آي، يا للخانات الرهيبة، والمأكولات السيئة، ويا لملاءات الأسرة الشاحبة في دروب العالم! ويا لغبائي لأني لم ألحظ أن امرأتي ذهب خالص، من أفضل ذهب الأرض! أكاد أرغب في البكاء!

الجارة الحمراء: (تدخل مسرعة) أيها الرجل الطيب.

الجارة الصفراء: أيها الرجل الطيب.

الجارة الحمراء: اخرج من هذا البيت فوراً. أنت رجلٌ محترم، ولا يناسبك البقاء هنا.

الجارة الصفراء: هذا بيت لبوة، بيت ضبعة.

الجارة الحمراء: بيت امرأة خبيثة المولد، محطمة الرجال.

الجارة الصفراء: ولكن، إما أن ترحل بنفسها من القرية، أو نطردها مكرهة، إنها تصيبنا بالجنون.

الجارة الحمراء: أرغب في رؤيتها ميتة.

الجارة الصفراء: مكفنة وعلى صدرها باقة زهر.

الإسكافي: (مغموماً) يكفي!

الجارة الحمراء: لقد سال الدم...

الجارة الصفراء: لم تبق مناديل بيضاء.

الجارة الحمراء: رجلان كأنهما شمسان.

الجارة الصفراء: طُعِنا بالمُدى.

الإسكافي: (بصوت قوي) قلت يكفي!

الجارة الحمراء: بسببها هي.

الجارة الصفراء: هي، هي، هي.

الجارة الحمراء: نريد مصلحتك.

الجارة الصفراء: نبّهناك قبل فوات الأوان!

الإسكافي: أيتها المحتالتان الكبيرتان، الكاذبتان، خبيثتا المولد، سأقتلع شعوركن.

الجارة الحمراء: (للأخرى) أوقعت به أيضاً!

الجارة الصفراء: بقدرة القبلات دون شك!

الإسكافي: فليحملكما الشيطان، أنتما حيّتان، مزورتان!

الجارة السوداء: (من النافذة) أيتها الجارة، أسرعي!

(تخرج راكضة، وتحذو الجارتان الأخريان حذوها).

الجارة الحمراء: رجل آخر في الشبكة.

الجارة الصفراء: رجلٌ آخر!

الإسكافي: أيتها اليهوديات الظالمات! سأضع شفرات حلاقة في أحذيتكنّ! سأجعلكنّ تحلمن بي!

الطفل: (يدخل مسرعاً) دخلت الآن جماعة من الرجال إلى بيت العمدة. سأذهب لأعرف ما يقولونه. (يخرج راكضاً)

الإسكافيّة: (بشجاعة) إنني هنا، إذا كانوا يتجرؤون على المجيء، أشعر برباطة جأش أسرة فرسان اجتازت سلسلة الجبال مرات ومرات، دون سروج، على صهوات الجياد العارية.

الإسكافي: ألن تخور عزيمتك يوماً؟

الإسكافيّة: لن تستسلم أبداً من هي متسلحة، مثلي، بالحب والشرف. إنني قادرة على البقاء صامدة إلى أن يشيب شعري كله.

الإسكافي: (متأثراً، يتقدم نحوها) آه...

الإسكافيّة: ماذا أصابك؟

الإسكافي: إنني أنفعل.

الإسكافيّة: انظر، القرية كلها ضدي، يريدون المجيء لقتلي، ولا أشعر مع ذلك بأي خوف. الرد على الخنجر يكون بالخنجر، وعلى العصا بالعصا، ولكنني عندما أغلق هذا الباب في الليل، وأمضي وحيدة إلى الفراش...، أشعر بالأسى...، يا للأسى! وأعاني اختناقات!... تطقطق الخزانة، رعب! ينقر رذاذ المطر زجاج النافذة، رعب آخر! أحرك دون قصد، وأنا وحيدة، نوابض السرير، رعبٌ مزدوج! وكلّ هذا ليس إلا خوف الوحدة حيث تقبع الأشباح، أشباح لم أرها لأني لم أشأ رؤيتها، إنما رأتها أمي وجدتي وكلّ نساء أسرتي اللواتي كانت لهنّ عيون في وجوههن.

الإسكافي: لماذا لا تبدلين حياتك؟

الإسكافيّة: هل أنت بكامل عقلك؟ ماذا أفعل؟ أين أذهب وأنا في هذه الحال؟ إني هنا وأمري إلى الله.

(يُسمع في الخارج، بعيداً جداً، لغط أصوات وتصفيق).

الإسكافي: متأسف جداً، ولكن عليّ أن أمضي في سبيلي قبل أن يداهمني الليل. بكم أدين لك؟

(يحملُ لفافة الكرتون)

الإسكافيّة: لا شيء.

الإسكافي: لا أرضى بهذا.

الإسكافيّة: ما تناولته مقابل ما قدمته.

الإسكافي: شكراً جزيلاً.

(حزيناً، يحمل لفافة الكرتون) وداعاً إذاً... إلى الأبد؛ ففي مثل سني... (إنّه متأثر).

الإسكافيّة: (متفاعلة مع تأثره) لا أرغب بمثل هذا الوداع، إنني أكثر مرحاً.

(بصوت واضح) أيها الرجل الطيّب، عسى أن يوفقك الله في العثور على امرأتك، وتعود للعيش في الرعاية والاحترام اللذين اعتدتَ عليهما.

(إنها متأثّرة أيضاً)

الإسكافي: أتمنى لك الشيء نفسه مع زوجك... ولكن العالم صغير كما تعلمين؛ ماذا تريدين أن أقول لزوجك إذا ما جمعتني به المصادفة في دروب تجوالي؟

الإسكافيّة: قل له إنني أعبده.

الإسكافي: (يقترب منها) وماذا أيضاً؟

الإسكافيّة: بالرغم من سنوات عمره الخمسين وأكثر - فليبارك الله هذه الخمسين - أجده أشد وسامة وأحسن قامة من رجال الدنيا كلها.

الإسكافي: بنيتي، يا للروعة! أنتِ تحبينه بقدر ما أحبُّ زوجتي!

الإسكافيّة: بل أكثر بكثير.

الإسكافي: غير ممكن، أنا مثل كلب وديع وزوجتي هي التي تأمر في القلعة، فتأمر! لديها من المشاعر أكثر مما لدي.

(إنّه قريبٌ جداً منها، وكما لو أنه يتعبّد إليها).

الإسكافيّة: ولا تنسَ أن تقول له إنني في انتظاره، وإنَّ ليالي الشتاء طويلة.

الإسكافي: ستستقبلينه أحسن استقبالٍ إذاً؟

الإسكافيّة: كما لو أنه الملك والملكة معاً.

الإسكافي: (مرتعشاً) وماذا لو جاءت به المصادفة الآن بالذات؟

الإسكافيّة: سأجنّ من الفرح!

الإسكافي: وتغفرين له جنونه؟

الإسكافيّة: منذ زمنٍ طويلٍ غفرت له!

الإسكافي: أتريدينه أن يأتي الآن فوراً؟

الإسكافيّة: آه، ليته يأتي!

الإسكافي: (صارخاً) ها هوذا!

الإسكافيّة: ما الذي تقوله؟

الإسكافي: (يخلع نظارته وأدوات تنكره). لم أعد قادراً على الصبر يا إسكافية قلبي!

(الإسكافيّة كالمجنونة، بذراعين مفتوحتين. الإسكافي يعانق الإسكافيّة وهو يحدّق فيها وسط اضطرابها. يُسمع في الخارج بوضوح دوي الأغنية).

أصـــــــــوات: (داخلاً)

السيدة الإسكافيّة،

بعد رحيل زوجها،

فتحت حانة،

يرتادها السادة.

الإســــكـــافـيّـــة: (تستعيد وعيها) أزعر، شقي، سافل، وغد! أتسمع؟

كل هذا بسببك!

(ترمي الكراسي)

الإســــكـــافي: (متأثراً، يتوجه نحو منضدة عمله) يا امرأة قلبي!

الإســــكـــافـيّـــة: يا جواب الآفاق! آي، كم تسعدني عودتك! يا للحياة التي سأوفرها لك، لا مثيل لها في محاكم التفتيش! ولا في حياة كهنة معابد روما!

الإســــكـــافي: (على منضدة عمله) يا بيت سعادتي!

(تُسمع الأغنية قريبة جداً، يظهر الجيران من النافذة).

أصـــــــــوات: (داخلاً)

من الذي اشترى لك يا إسكافية

أقمشة ثيابك

وبلوزتك الرقيقة

المطرزة بالدانتيلا؟

العمدة يتودد إليها،

دون ميرلو يتودد إليها،

إسكافية، يا إسكافية،

لقد ضعت يا إسكافية!

الإســــكـــافـيّـــة: يا لشقائي! يا لشقائي مع هذا الرجل الذي منحني الله إياه!

(تتجه نحو الباب) اخرسي، اخرسي أيتها الألسنة الطويلة، أيها اليهود الحمر! وتعالي، تعالي الآن إن أردت. فنحن اثنان للدفاع عن بيتنا، إننا اثنان، اثنان، أنا وزوجي.

(تتجه إلى زوجها) مع هذا الشقي، مع هذا الوغد!

(يملأ صخب الأغنية المشهد. ويدوّي قرع ناقوسٍ بعيد وقوي جداً)

ستار
نهاية «الإسكافيّة العجيبة»